الشخصية أساس النجاح

بقلم س . م

ليس من السهل أن نعرف الشخصية ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نصف أحد الناس بأن له شخصية ضعيفة أو قوية . وقد عرف أحد الاجتماعيين الشخصية بانها المقدرة على الخدمة ، أى قدرة الانسان على أن يخدم نفسه ويخدم غيره . ومن هنا عبارتنا المألوفة حين نقول لأحد الناس : لاتعتمد على فلان كثيرا لأنه ليست له شخصية ، فلن يستطيع أن يفعل .

وقد كان الذكاء أعظم ماينظر إليه فى موضوع النجاح . ولكن الأمريكيين الذين يؤمنون بالنجاح ويسهبون فى بحثه وشرح أساليبه قد انتهوا إلى أن النجاح لا يحتاج إلى أن نعرف عنه "معدل الذكاء" فى الفرد ، بل "معدل الشخصية" .

ذلك أن الشخصية الكاملة تحتاج إلى أن ينجح الانسان ليس فى حرفته فقط ، بل أيضا فى أسرته وصحته وثقافته ومجتمعه . إذ ماذا يجدى الرجل الذكى أن يتفوق على أقرانه وزملائه فى الحرفة ويصل منها إلى القمة فى حين يكون فاشلا فى أسرته قد ساءت علاقته بزوجته أو أهمل فى تربية أولاده ؟ ثم ماذا يجدى نجاحه فى حرفته إذا كانت صحته قد اعتلت أو إذا كان قد انكب على عمله حتى استغرق كل وقته فلم يبال رقيه الذهنى ، ولم يحصل على شىء من الثقافة العصرية التى تجعله يفهم زمنه ويهتم بهموم جيله ؟ وأخيرا ماذا يجديه ذكاؤه إذا كان قد أهمل المجتمع الذى يعيش فيه فلم يشترك فى نشاطه ولم يساهم فى طموحه ؟

والكتب تؤلف هذه الأيام عن الشخصية كيف تنشأ ، وماهى العوامل التى تؤخر نموها ، أو تؤيده ؟ بل إن فى الولايات المتحدة الأمريكية التى تعبد النجاح — كما قلنا — مجلة أو مجلات عن الشخصية تبحث موضوعها من وجوه مختلفة وتحاول أن تبث فى كل فرد عناية خاصة بشخصيته .

وللشخصية أصول جسمية لاتقتصر على مظاهر القامة وتقاسيم الوجه وتعابير الملامح ، بل تتجاوز كل هذه المظاهر الى البواطن من قوة الذكاء إلى قوة الغدد الصماء التى تقرر المزاج الأخلاقى . فإننا جميعا نتأثر بضآمة الوجه أو وسامته ، كما نتأثر بالقامة طولا أم قصرا ، وضآمة ، أم ضخامة . ولكن هذه الحال التى نولد بها لانكاد نستطيع التأثير فيها ، ولذلك نتركها كأنها

لا وجود لها . وإن كان المجهود الذى يبذله الرجل الضئيل القمىء لكى تكون له شخصية يجب أن يكون أكبر من المجهود الذى يبذله رجل وسيم فخم القامة . ولكن هذه الميزات أو العيوب الجسمية ليست كبيرة القيمة ، كما نتوهم ، لأن الشخصية تربى وتكون أكثر مما تولد . ونحن نتعرف إلى الشخصيات العظيمة بالمعاملة . فهى فى الحقيقة مجموعة من الأخلاق تتناسق حتى تتألف منها صورة منسجمة هى ما نسميه الشخصية .

البذور الأولى للشخصية

إذا تركنا الصفات الجسمية التى تميز شخصا من آخر ، وهى تراث بيولوجى بحت وجدنا فى كل انسان صفات أخلاقية هى التراث الاجتماعى الذى يرثه فى بيئته العائلية والمدرسية والحرفية والمعاشية . ومن الاثنتين ستتكون شخصيته فى النهاية .

وفى البيت نجد البذور الأولى للشخصية . فان هناك الوسط العائلى الذى يتيح للأطفال حرية الابتكار والعمل والمعاونة واللعب . ففى هذا الوسط تنشأ الشخصية أحسن نشأتها . والبيت الذى تتعدد أطفاله خير هنا من البيت الذى يعيش فيه الطفل منفردا يجد من أبويه التدليل ، ولا يجد الفرصة لكى يعتمد على نفسه ويبتكر ويتعاون مع سائر الأطفال . فالمجتمع الذى سيعيش فيه هذا الطفل يحتاج إلى رجل يتعاون معه ويخدمه . فاذا لم يتعلم الطفل منذ التعاون مع سائر الأطفال منذ طفولته فانه يتخذ أسلوبا للحياة لا يتفق ومصلحة المجتمع . وعندئذ تبدو انحرافات مختلفة فى شخصيته . والبيت الذى تكثر فيه القيود لحرية الأطفال يؤخر نمو شخصياتهم ، ولكن الإسراف فى الحرية يعمم الفوضى فى البيت فيتأخر أيضا نمو الشخصية . والبيت الأمثل هو ذلك الذى يعرف فيه الطفل ثم الصبى طائفة من التكاليف التى لا ترهقه . كأن يكلف النظافة والترتيب والمواعيد إلى غير ذلك . فالبيت الذى يأكل فيه الأطفال بلا ميعاد أو يلقون فيه ملابسهم ولا يعرفون مكانها فى الصباح أو الذى يعلو فيه الحديث إلى الصياح — مثل هذا البيت الذى يعمه الهرج لن تنشأ فيه الشخصيات المنظمة التى لا تنشأ ثم لا تنمو إلا فى جو هادئ منظم .

ثم يجب أن نصرح هنا بأن الحجاب يشد الشخصية فى المرأة بمقدار قوته أو ضعفه . لأن الشخصية هى فى النهاية ثمرة الاجتماع . فما زال الناس يضعف الشخصية والاجتماع بهم يقويها على وجه عام . ونحن فى مصر لا نبالى كثيرا أن تكون للمرأة شخصية . ولكنا ننظر إلى هذا الموضوع من ناحية التأثير على الأطفال . فان مما لا شك فيه أن للقوة قيمتها فى تنشئة الشخصية وتنميتها . والطفل الذى يرى أمه تتبع وينجعها طرق الباب من الغريب يتخذ بعد ذلك هذا الأسلوب نحو الغرباء ويحتاج إلى كفاح نفسى جديد لكى يتغلب عليه . وشخصيته تضعف بمقدار هذا الخوف الذى غرس فى صدره أيام الطفولة .

والبرنامج الدراسى الثقافى فى المدرسة لا يكاد يؤثر فى الشخصية إلا من حيث بعث روح المباراة . وهو روح يجب ألا نسرف فيه. لأن المجتمع يحتاج إلى التعاون أكثر جدا مما يحتاج الى المباراة . وأعظم ما ينقص الصبى الناشز والرجل المجرم والمريض النورستينى هو التعاون. فانهم جميعا يطلبون سيادتهم الذاتية دون أن يفكروا فى مصلحة الغير . وهنا نجد أن الألعاب التى تنظمها المدرسة تخدم روح التعاون وتؤدى بالتالى الى تكوين الشخصية أكثر مما يخدمها البرنامج الدراسى فان فريق الكرة وفرقة الكشافة والرحلات وسائر هذا النشاط تستنبط جميعها من نفس التلميذ روح التعاون وتكون شخصيته لهذا السبب . وكذلك الشأن فى جميع ألوان النشاط التى تجعل التلاميذ يعملون مشتركين لهم مصلحة واحدة فى نجاح الجماعة مثل التمثيل .

ويجب أن نصرح هنا بأن التعليم المختلط بين الجنسين يكون الشخصية أكثر مما يكونها التعليم المنفصل لأن الشخصية تعنى فى النهاية القدرة على المعاملة والتعاون . والانفصال ينقص هذه القدرة بقدر ما يزيدها الاشتراك .

ماذا يرقى الشخصية ؟

يجب أن تنمى الشخصية فى نمو لا ينقطع . فاذا حسنت البيئة العائلية ، ثم بيئة المدرسة فإن الشاب يحتاج بعد ذلك الى ما يساعده على نمو شخصيته . والمجتمع بطبيعته يساعد على هذا النمو .

وأعظم ما ينمى الشخصية هو مقدار التبعات ونوعها وتعددها. فان للحرفة تبعات فى تعيين المواعيد ومقابلة أفراد الجمهور وخدمتهم والشعور بأن الشخص يؤدى عملا عاما لخدمة المجتمع. وكل هذا يبعث على نمو الشخصية ويشعر الكرامة والمنفعة. ومن هنا يجب ألا ننسى أن التعطل بين الشباب المتعلمين يؤذيهم أكبر الأذى فى نمو شخصياتهم .

وتبعات الأسرة لا تقل عن تبعات الحرفة . فان الزوج الذى يعرف التضحية والخدمة لزوجته وأولاده يحس تبعات لا يحسها الأعزب . ومن هنا تتكون له شخصية أكبر من شخصية الأعزب . بل إن المرأة تنمو شخصيتها بالزواج وتربية الأولاد لأنها تحس تبعات تعنيها على التفكير والاهتمام ، وكلاهما مما ينمى الشخصية .

ثم هناك تثقيف الذهن وتثقيف الجسم . فكلاهما نمو يبعث الكرامة وإحساس الرقى ، ويعيد أن يعمد شاب الى العناية بجسمه دون أن تنطوى هذه العناية على الاهتمام بالصحة والهندام . وكذلك بعيد أن يعنى بذهنه دون أن يهتم بالمجتمع ويأخذ بروح العصر الذى يعيش

فيه . ولكن يجب ألا ننسى هنا أن لإكباب على الدرس قد نسرف فيه فيدعونا الى الانعزال والانفراد . وهذا بالطبع يضر بالشخصية ولا يرقيها . وكلنا يعرف ذلك الفارق فى الشاطة الذى يسير بخطوات مرتكة ويحدث بإجابات عسراء ولغة مترددة . فانه اكتسب هذه الصفات بانعزاله وهى أبعد الصفات عن تكوين الشخصية الناجحة .

والشخصية تحتاج الى نفس متزنة بعيدة عن الاضطراب والقلق ، وهنا نجد القيمة الكبرى للهواية . فيجب أن تكون لكل انسان هوايته التى تشغل فراغه وتخفف سأمه وتحرك ذكاءه . فقد يرتاح أحدنا الراحة النفسية العظمى عند ما يقضى ثلاث أو أربع ساعات وهو منهمك غارق فى معالجة قطعة من الخشب يحاول أن يصوغ منها كرسيا أو مائدة أو خزانة . وليست العبرة هنا بما يفعله بقطعة الخشب وإنما العبرة بما تفعله قطعة الخشب به . لأنها ستشغل فراغه وتعيد الانسجام والسكينة الى نفسه بعد الاضطراب والقلق . وهذا وحده يستحق المجهود .

تغير الشخصية

الشخصية ثابتة يصعب تغييرها . وهى مثل الخط الذى نكتب به أو اللهجة التى نتحدث بها . فان لنا أسلوبا فى الحياة نتخذه ونعرف به شخصيتنا . وكما يشق علينا أن نغير الخط الذى اعتدناه أو لهجة الحديث التى نشأنا عليها كذلك يشق علينا تغيير شخصيتنا . والتروى فى الخطوط يسهل إنجازه وتحقيقه ، لأن لكل منا طريقته فى الكتابة . وكذلك يصعب على أى انسان أن يقلد شخصية آخر .

وقد قلنا إن لكل انسان طريقته فى الكتابة أو الحديث ، ولكن الحقيقة أن له طريقته أيضا فى المشى أو الايماء ، بل له طريقته فى معالجته للمشكلات سواء المصالحة أم بالمخاصمة أم بالتسوية أم بالتحدى . وله نظرته للدنيا ، هى نظرة التفاؤل والفكاهة أم التشاؤم والجد . وكما أن للكاتب أسلوبه فى النثر أو الشعر كذلك لكل انسان أسلوبه فى العيش .

ولكن نرى أحيانا أن الشخصية تتغير . وتغيرها يبدو لنا عجيبا حتى أننا نذكره كأنه شاذ أو فذ . فنحن نذكر ذلك السكير العربيد الذى تغيرت شخصيته الى الصلاح والصحو . ونذكر ذلك الأعزب المتلاف الذى يستحيل الى الجد والاقتصاد بعد الزواج . وهذا التغير فى الشخصية إنما يحدث بعد اقتناع بأن الأسلوب الذى نتبع هو أسلوب سيئ يجب أن يتغير . وينمو هذا الاقتناع رويدا رويدا حتى يقول به العقل ثم لا يزال فى التزايد على النفس والتأثير فيها حتى يصير عقيدة تلمو بالتصميم فيبعث كراهة جديدة أو حبا جديدا . وهذا التغير مع أنه يحدث

رويدا رويدا لأنه يبدو مفاجئا . فان المدمن للتدخين ينقطع عنه حسب الظاهر انقطاعا تاما مفاجئا . ولكنه فى الواقع كان يطلب ذلك بعقله ورأيه . فالرأى يحتضن هذا الرأى حتى استحال عقيدة فى قلبه وعندئذ استطاع أن يكف عنه . فهو قد قضى السنوات وهو يتخيل نفسه كارها للتدخين منكفا عنه ، وما زال هذا الخيال حيا ينمو فى نفسه ويتسلط عليها حتى بعث الارادة فكان الانقطاع .

فاذا شئنا أن نغير شخصيتنا فعلينا بالخيال نربيه ونغذيه حتى تنتهى الى الارادة فنستطيع عندئذ إتمام التغيير المنشود .

* * *

هذه المسامة سريعة بالشخصية ما هى ، وكيف تنشأ ، وماهى الأصول التى تبنى عليها . ثم ماذا يقيها وينميها ، او أخيرا كيف يمكن تغييرها . وكل من هذه الموضوعات يستحق أن يعالج على حدة . ولكنا نعد هذه الكلمة مقدمة لأبحاث مسهبة نرجو أن نوفق اليها .

س . م .

من حكم الإمام على

— يا ابن آدم : كن وصيّ نفسك فى مالك ، واعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه مَنْ بعدك .

— الحدّة ضرب من الجنون ، لأن صاحبها يندم ، فان لم يندم فجنونه مستحكم .

— والذى وسع سمعه الأصوات ، ما من أحد أدخل على قلب فقير سرورا إلا خلق الله له من هذا السرور لطفا ، فاذا نزلت به نائبة جرى إليها لطف الله كالماء فى انحداره حتى يطردها عنه .

— إذا انتقرتم فتاجروا الله بالصدقات .

— صاحب السلطان كراكب الأسد : يغبط بموقعه وهو أعلم بموضعه .